مغزى الصراع

كسب الحرب وتجديد النفوس وتهيئتها للعصر المقبل

ان هذا الصراع هو الناحية الحربية من ثورة عالمية على الحضارة . وقد تهيأت الثورة ، في ثنايا الانحلال الطارىء على أخلاق الافراد والجماعات ، فسبقت نشوب الحرب وستمضي بعدها ، إن لم تعالج الأمم الينابيع التي تمتح منها ، وان لم تجدد النفوس ، بيناهي تثني كل عضل وتشد كل عصب ، لكي تتغلب على الذين انتضوا السلاح في وجه الحضارة . والواقع ان العملين عمل واحد ، يتعذر فصل احدهما عن الآخر

وما الحضارة ؟ هي مجموعة من القواعد يلتزمها الناس في معاملاتهم ، ومن العهود يحترمونها ، ومن النشآت والعادات والتقاليد أفرغت فيها تجارب الامم واختبارها طوال القرون الماضية . وجذورها ممتدة منتشرة ، فيما أخذ الناس أنفسهم به من مبادىء ثقافة ودين وانسانية . والناس يأخذون بهذه المبادىء لبقيتهم ، أنها تزرع الصالح ، وتروض الباطل فلا يستفحل شره . فاذا أقدم الناس على تحطيم القواعد ، واستباحة العهود بدلاً من تطويعها لملاءمة الزمن فالمرض ماش في جذور الحضارة وأغصانها وورقها

وما الهمجية ؟ ان عاقبتها واحدة وان كانت طبيعتها مزدوجة . فهي تنتهي دائماً الى الايمان بالقوة . انها تتنكر للقواعد المرعية والعادات وتتهكم بها ، لانه اذا كان السلطان غاية ، ولذا كان السلطان يكتسب بتحطيم القواعد والتنكر للعادات والعهود ، فليكن ذلك . وهي للسبب نفسه تهدم النشآت التي أحاطتها القرون بهيبتها . فالهيئة الدينية – كالكنيسة والجامع – والاسرة والمدرسة ، لا قيام لها الا اذا كان لها سلطان ما في دائرتها الخاصة . ولكن الهمجي الذي يسعى الى السلطان المادي [illegible] كما وصفه رتراند رسل في كتابه السلطان [illegible] لا يسعه أن يعترف بسلطان آخر غير سلطانه ، أي عليه ان يحكم بالارهاب ، وحيث يغلق تحكم وتفكك القانون ونواميس الاخلاق والاجتماع ، الا تحكم الارهاب

***

وللهمجية وجهان ، أحدهما يولد في ثنايا الحضارة نفسها ، فينخر فيها كالسوس ، ويوهن

الفضائل والأخلاق ، والآخر يهددها من الخارج بالعنف . ولكنّ الهمجية سواء أهذا كانت أم ذاك، وسواء أصفة من صفات الشيخوخة كانت، أم من صفات الفتوّة والاندفاع ، نهي في الحالين العدو الدائم للحضارة . وعندما تتراخى قوة الحضارة ، يظهر الهمجي على صفحات التاريخ . ومهما يتنوّع شكلهُ ، فانهُ في المقام الأول ، متحفز في قلب المرء ووجدانه ليدفع بصاحبه الى هدم حضارته ، بإيهان إيمانه فيها والوسوسة له بأن الفضائل الاصيلة ، لا مكان لها ولا منزلة .

* من ثمار كل حضارة صناعة يولدها العلم القائم . ولكن صحة الحضارة لا تقاس دائماً بارتقاء صناعتها . فانّ الصناعة في العصر الحديث عظيمة . ولكن استعمالها مرهون بأخلاق الافراد والجماعات ، فاما أن تستعمل أداة لصون لباب الحضارة وتوسيع آفاقها وتعميم نعمها ، وإما لهدمها . وقد تبقى الصناعة مزدهرة في حضارة دبّ فيها دبيب الفساد . ولكنها لن تزدهر طويلاً . اذ لا بد أن يقوم الهمجي ، عندما يطغى الفساد ، فيستعمل الآلات للفتك بمخترعيها . واذن فلا مفرّ للانسان ، في ظل حكم الارهاب ، من الانحدار في طريق ، اقتضى منه التصعيد فيه ، نصباً وضنىً وقروناً طويلة . في ظل حكم من هذا القبيل ، يغدو العلم عقيماً ، ويدب في الصناعة نفسها دبيب الفناء . فالعقل الانساني ، لا يكون مبدعاً خلّاقاً ، إلاّ اذا كان حرّاً . والهمجي في نفوسنا هو ألد أعدائنا ، وأقوى عدة لخصوم الحضارة عليها

فالنضال اذن نضالان . نضال لكسب الحرب ، أي لهزيمة القوى الخارجية التي تهدد الحضارة بالعنف . ونضال لتجديد النفوس وتهيئتها للعصر المقبل . ولا خير يجنى من دحر العدو الخارجي ، إلاّ اذا دحر العدو الداخلي كذلك

***

ويخطىء من يظن أن الشعوب ترضى بمعاناة هذه التجارب والمحن لأنها ترغب في العودة الى الحالة التي سبقت نشوب الحرب . بل هي راضية بما تعاني وتقاسي في سبيل أمل ، يتيح لها فرصة أخرى لكتب في تاريخ البشر فصلاً جديداً . وما هذا الأمل ... الأمل المعقود على أن يتعلم الناس أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم حكماً صالحاً ، وأن يحصلوا على نصيب عادل من خيرات الأرض ونتاج العمل . وأن يشتركوا في بناء مساكن أجمل وأصح من مساكنهم الآن ، وأن ينشئوا حدائق وميادين وطرقاً ومعامل ، تسبغ على الحياة في المدن والريف مسحة من الجمال والرضى ، وأن يتقاسموا فرحة المتعة بالحق في المدارس والجامعات ، وأن يعربوا عن آرائهم في الصحف والكتب والاذاعات وغيرها اعراباً أحكم وأبلغ من اعرابهم الآن ؛ وأن يتاح لهم الاقبال على أعمالهم وعاداتهم ، كل يوم في خشوع وانصاف وسماحة وكرامة

مثل كالية بعيدة المنال ! وانما لكذلك . ولكنها في الواقع لا تعين الا طرفاً من الأمل البشري الذي يمكن تحقيق بعضه، اذا كان الناس أحراراً، ويسعون حقاً ورشداً الى انشاء عالم أصلح من العالم الذي هوى ولن يعود . فالحرب، انما تدور رحاها في سبيل هذا الأمل، وكل امرىء يستطيع أن يسدي خدمة الى تحقيق يسير من هذا الأمل اذا بدأ في تعهده

وقد قال الفيلسوف برتراند رسل في هذا المعنى: « قد يبدو لك من الغرور أن تظن ان في وسعك اسداء يد عظيمة لتحسين أحوال الناس . ولكن هذا الظن وهمٌ . فعليك أن توقن بأنك قادر على تحسين العالم . ان الاجتماع الخيّر قوامه أفراد أخيار، كالكثرة التي تنتخب الرئيس قوامها أصوات الافراد من الناخبين . وفي وسع كل امرىء أن يسدي صنيعاً ببثّ شعور اللطف والرضا في بيئته بدلاً من تحريك روح السخط والغضب، وبتعزيز الميل الى التعقل دون الميل الى الهستريا، وبنشر السعادة والرخاء بدلاً من البؤس والشقاء . ومجموع هذه الأعمال هو الفارق بين الخير والشر في العالم . فاذا كنت قطباً سياسيّاً كانت بيئتك واسعة . واذا كنت أحد الناس، كانت بيئتك محدودة . ففي الحال الأولى تستطيع كثيراً، وفي الثانية تستطيع قليلاً، ولكنك على كلّ حال تستطيع، ويجب أن تصنع شيئاً ما . فكل والد أو والدة، ينشىء ولدهُ بحيث يكون أميلَ إلى التعقل والدماثة، انما يعمل ما يجب ان يعمل لاصلاح العالم وإقامة أركان السعادة فيه، وكلٌّ من يقاوم النزوع الى التعصب — وهو نزوع يحيق بنا جميعاً — يضع لبنةً في بناء مجتمع تستطيع الجماعات المختلفة فيه أن تعيش في مودّة متبادلة . قد تقول : ما أقلّ ما يستطيعهُ امرؤٌ واحد ضد شرّ كبير ! ولكن الشرور الكبيرة مردُّها الى اجتماع شرور صغيرة . والخير العام ينشأ على المنوال نفسه

«وقد تقول ما يستطيعهُ امرؤٌ فردٌ ضد العالم . ولكنك لو كنت شريراً لكان نصيبك من الشر الاكبر يسيراً كذلك . فالخير والشرُّ على السواء ينشآن من أعمال الافراد، ولا يقتصر ذلك على الافراد المميزين بل يشمل جميع الرجال والنساء الذين تتقوم الجماعات بهم »

واذا كان في الوسع استخراج عبرة أساسية واحدة، من زوايا الحرب، وقد دخلت سنتها الرابعة، فهذه العبرة مؤدّاها ان السيطرة الناشئة عن الشعوب المغلوبة المتّسدّ مياه قد وضعت الامم الحرة والمغلوبة على أمرها سواء بسواء، انها تواجه امتحاناً لقدرتها اولاً، ولحقها ثانياً، في أن تعيش حرة . لأن ثمن الحرية، هو اليقظة الدائمة والكفاح المستمر، فهي تقتضي من أبنائها تحمل التبعات العظيمة الناشئة عن التمتع بمزاياها، واذن فالبسالة والتضحية والصلابة في ميادين الانتاج والقتال، يجب ان يداوقها ايمان صادق بقيمة الاستقامة الخلقية وكرامة الفرد البشري